الاغتراب في شعر محمود درويش

الدكتور ابراهيم محمد صبيح
رئيس قسم اللغة العربية وآدابها - جامعة العلوم التطبيقية
عمان - الاردن

المقدمة :

(محمود درويش) فن انبته جذع زيتوننتا الخالدة منذ زمن بعيد... أورق وأثمر ، فأنشد للجذع الراسخ ، والأرض الملوعة ، والطير المهاجر الحزين .. يحتضن أعشاشه ، ويدعو أسرابه الى العودة .. [1] ، من هنا يرى الكثير من الأدباء والنقاد بأن شعر محمود درويش فن صاف ، سجل الواقع المجرد ، بكل ما فيه من رتابة يومية ، وثرثرة للكلمات المكررة ، أو القصص الصغيرة أو الأحداث التاريخية .

ويرون أن الشعر لون من ألوان الأدب ، يغوص إلى أعماق الإنسان ولا يعترف بزمان أو مكان . وبما أنه لون من ألوان الأدب ، فهو وجه من وجوه التعبير عن حال نفس أو جماعة أو أمة في فترة ما ، ولسبب ما ...وكثيرا ما

(١) يوسف الخطيب - ديوان الوطن المحتل - دار فلسطين للتأليف والترجمة والنشر - دمشق ، ١٩٦٨ : ١٠١ .

يرتبط بوجدان الإنسان أو الأُمة حسب درجة تعبيره عن الحالة أو اهتماماتها المختلفة .

وقد عرف العرب الشعر وقرضوه ، قبل أن تعرف لهم لغة مكتوبة ، منذ ما يقرب من الألفي عام .. قالوا في أغراض شتى ، حتى برزوا في فنونه المختلفة كثيرا من الشعوب التي عاصرتهم .

وقد مرَّ الشعر العربي ، كغيره من الأشعار العالمية ، بفترات ازدهار وتفوق ، وفترات ضعف وتدهور ، وفقا للظروف السياسية والاجتماعية والبيئية والثقافية التي عاشها العرب على مدى تاريخهم وحتى يومنا هذا .

ويعد النصف الثاني من القرن العشرين ، في نظر العديد من مؤرخي الأدب العربي الحديث العصر الذهبي للشعر في ضوء ما شهدته هذه الحقبة من ظهور نخبة ممتازة من الشعراء الأفذاذ في طول الوطن العربي وعرضه ، ولا سيما الشعر العربي في الأرض المحتلة من فلسطين ، خصوصا ما يتصل بشاعرنا محمود درويش ، الذي تربع على قمة هرمه بلا منازع .

وقد أقبل الباحثون على دراسة شعر تلك النخبة من شعراء فلسطين ، وإبراز قيمتهم الأدبية فقدموا إلى المكتبة العربية نتاجا غزيرا من البحوث والدراسات القيمة . وقد نال شعر محمود درويش حظا من تلك البحوث والدراسات ، ولعل مرد ذلك ، يعود الى النهضة الشعرية الجادة ، التي بلغت ذروتها عشية وقوع النكبة عام ١٩٤٨ م .

والشعر الفلسطيني في إطاره العام ، ونطاقه الواسع ، تراث أدبي غني ، مثل ولا يزال وجدان وضمير الشعب الفلسطيني والأُمة العربية ، كما سجل في أبلغ عبارة وأبهى صوره وأجمل لفظ ، وأرق معنى ، حياة هذا الشعب ، قبل النكبة وبعدها ، داخل الوطن المحتل وخارجه .

وشعر الاغتراب والتمرد على الواقع ، سواء داخل الوطن المحتل أو خارجه ، ظاهرة فريدة وجديدة في حياة الأدب العربي في فلسطين خاصة

أو الأدب العربي عامة ، بم تناول في مجموعه ومضمونه من الفنون التي تشكل ثروة أدبية قلّ مثيلها ، لأنها تسجل حياة شعب ومصير وطن .

وبمثل هذا النوع من الشعر ، جاءت أغاني محمود درويش – ابن قرية (البروة) شرقي مدينة عكا ، شمالي فلسطين – في صورة المقيم المغترب ...الحاضر الغائب وربما اعتبر هذا الشعر نوعا من فلسفة تبدأ بالتساؤل أو الدهشة أو أنها تبدأ حينما يصدمنا شيء ما بغرابته ، أو أن الفلسفة هي وليدة الغربة ، وما ضرورة لأن يكون ذلك إغترابا عن البشر الآخرين حيث يمكن أن يكون إغترابا عن الذات أو الكون ... ومثل هذا الاغتراب قد لا يكون بالضرورة حدث فكري ، بل يشمل غربة عميقة عن إيمان وأخلاقيات مجتمعنا [١] . لقد غلب هذا الطابع ، طابع الاغتراب ، كل شعراء الأرض المحتلة ، ومن قبلهم شعراء النكبة الأولى ، فنرى عناوين لدواوين تحمل اسم الغربة والغرباء.

نكبة فلسطين ، وأثرها على الشاعر محمود درويش :

غالبا ما عاشت فلسطين في خطر خارجي، يتناسب طرديا وخطورة موقعها الجغرافي وأهميتها الدينية والتاريخية ، وذلك منذ ظهور القوى المتصارعة على النفوذ ، متمثلا في الحروب الكثيرة التي وقعت على أرضها . وهذا يعني معنى واحدا ، وهو ان فلسطين محط أنظار العالم ، استراتيجيا ودينيا .. من هنا ، كان على شعب فلسطين أن يتحمل كل التضحيات ثمنا لحرية وطنه .

وبنقلة سريعة إلى هذا القرن ، نرى أن فلسطين قد شهدت متغيرات كثيرة حيث كان العامل السياسي على رأس العوامل التي أدت إلى حدوث تلك المتغيرات المثيرة ، بالقضاء على الدولة العثمانية في مطلع هذا القرن ، ونشاط الحركة الصهيونية المدعوم من الدول الاستعمارية ثم أصبح الصراع الديمقراطي بين العرب واليهود ، جزءا من الصراع السياسي ، لأن الصهيونية العالمية ، استهدفت

(١) ريتشارد شاخت ، الاغتراب ، كامل يوسف حسين . المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٠ ، ص ١٩ – ٢٠ .

محو عروبة فلسطين ، بالعمل على تهويدها ، فكان (وعد بلفور) عام ١٩١٧ م نواة المؤامرة التي تم تنفيذها على المراحل التالية :

المرحلة الاولى : وتتمثل في فترة الانتداب البريطاني ، من عام ١٩١٨م ، إلى عام ١٩٤٨م ، واستمرت ٣٠عاما ، شهدت خلالها تدفق المهاجرين اليهود من مختلف أصقاع الدنيا ، وبمساعدة سلطة الانتداب البريطاني ، تنفيذا لوعد بلفور الذي قطعه اليهود في ٢ / ١١ / ١٩١٧ م .

المرحلة الثانية : وتتمثل في بداية المأساة ، وقيام الكيان الاسرائيلي عام ١٩٤٨م، وتشريد معظم أهالي فلسطين الى الدول العربية المجاورة .

المرحلة الثالثة : وتتمثل في العدوان الاسرائيلي الشامل على مصر وسوريا والأردن ، في الخامس من حزيران عام ١٩٦٧م ، الذي أكمل به احتلال بقية فلسطين وسيناء والجولان .

وقد جاءت أهمية فلسطين كونها قلب الوطن العربي ، والجسر الذي يربط مشرقه بمغربه ، وآسيا بأفريقيا . كما تبرز أهميتها في أن بعث على أرضها معظم الأنبياء والمرسلين ، فهي وطن مقدس للأديان الثلاثة ، كذلك كونها الطريق التجاري بين أوربا و المشرق [١] .

ولو رجعنا الى ماقبل كارثة عام ١٩٤٨ م ، لوجدنا أن الأدب العربي ، ولا سيما الشعر منه في فلسطين ، يشكل رافدا لا بأس به في ذلك التيار ، الذي شغل النصف الأول من هذا القرن ، والذي اتخذ من القاهرة بالذات مركزا لإنطلاقه ، متأثرا بالأقلام المصرية والشامية .

وبعد الكارثة ، أدت الطلائع الفلسطينية الشابة المثقفة دورا بارزا في مجال الأدب ، ونجحت في وضع أُسس عريضة على ساحة الشعر في وقت قصير ، حيث أبدعت في خلق أنموذج جديد ، هو شعر الاغتراب . وخلال سنوات النكبة التي عاشها الشعراء واكتووا بنارها ، حدث تطور نوعي بارز في طبيعة ذلك الأدب . فبعد النكبة مباشرة ، كما هو متوقع ، خيّم الصمت أولا ، نتيجة الذهول

(١) سلامة النحال ، فلسطين أرض وتاريخ ، دار الخليل للنشر ، الأردن ، ١٩٨٤ ، ص ٧ .

الذي أصاب الناس ثم انفجر شعر حماسي متمرد على الواقع المرير ، متجاوبا مع الضمير الشعبي ، الذي ما إن صحا من الذهول ، لجأ إلى عدم التصديق [١] .

إن الأدب العربي في فلسطين ولا سيما ما كتب منه في المنفى ، لم يكن يخضع لهذا النوع من الأدب الذي تأثر بالضمير الشعبي ، ولكنه كان يخضع أيضا للتيارات الأدبية العربية والعالمية ، التي تفعل فعلها العميق والسريع في طبيعة الحياة الأدبية . ونتيجة لهذا التأثير المزدوج ، خضع شعر الاغتراب لتغيير نوعي في المضمون والشكل ، إذ فرضت التيارات الشعرية الحديثة شخصيتها على التكتيك الأدبي وفرضت المرحلة التي اجتازها الضمير الشعبي على المضمون [٢] .

فبعد الشعر الحماسي الصاخب الذي شهدته أوائل الخمسينات ، حطم الشعراء العمود التقليدي من حيث الشكل ، وغادروا الحماسي الذي وجدوا فيه لمرحلة من المراحل تكذيبا شخصيا للكارثة الى نوع فريد من الحزن العميق [٣] والتمرد العنيف على الواقع المؤلم ، وحياة العذاب والاغتراب داخل الوطن وخارجه ، كقول الشاعر خليل زقطان :

أنا قد صحوت على الجراح تسيل من بعضي لبعضي
أنا قد صحوت واذ أنا ملقى بأرض غير أرضي [٤]

ومما زاد غليان الشعراء ، وتمرد أصحاب الأقلام الوطنية من أبناء فلسطين وقوع حرب الخامس من حزيران ، والتي أسفرت عن هزيمة جديدة ، اهتز لها الضمير العربي ، وبدأت الأقلام الجادة المخلصة تفتش عن أسباب المأساة والتي

---

(١) غسان كنفاني ، أدب المقاومة الفلسطينية ، منشورات دار العودة ، بيروت ص١٠ ، ص ١٦ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

(٣) أدب المقاومة في فلسطين : ص ١٠ .

(٤) ديوان صوت الجياع ، خليل زقطان : مطبعة دار الأيام الاسلامية ، القدس ، ١٩٦٩ ، ص ٨ ، ص ٩ .

كان على رأس أسبابها الواضحة ، أن العرب يعرفون القليل عن الكيان الإسرائيلي ، وما يجري فيه ، وأن الإسرائيليين يعرفون كل شيء عن العرب ...ومع ذلك غابت هذه البديهة عن النضال العربي وقتا طويلا ، وبصورة مثيرة للدهشة والفزع [١] . وفي غمار البحث عن الهزيمة وأسبابها ، برزت على سطح الحياة الفلسطينية حركة المقاومة الفلسطينية المسلحة ، التي يبدو تأسيسها سبق هذه الهزيمة بسنوات عدة سواء داخل الأرض الفلسطينية أو خارجها ، وباتت المعّبر عن هوية الشعب الفلسطيني من خلال اكتساب اعترافا نسبيا عربيا ودوليا .

وطبيعي والحالة هذه ان تزدهر الحياة الأدبية في فلسطين ، وتظهر سماتها الخاصة وملامحها الذاتية في بروز الكثير من الكتاب والشعراء والنقاد ، من أمثال محمود درويش وسميح القاسم وتوفيق زياد ومعين بسيسو وكمال ناصر وأبي سلمى وغسان كنفاني وغيرهم فأضافوا الى المكتبة العربية العشرات من الكتب والدواوين الشعرية عن كل ما يتعلق بالحياة الأدبية والثقافية والفكرية للشعب العربي الفلسطيني والتي ازدهرت في الستينات من هذا القرن ولا زالت .

ويتفق الكثير من النقاد على أن الحياة الفكرية والأدبية في فلسطين كانت ومنذ مطلع القرن العشرين ، برغم تعرض فلسطين للغزو البريطاني والصهيوني، نشطة وفاعلة ، بوجود العديد من المعاهد العلمية ، واتساع نوعية وعدد هذه المعاهد ، ثم توجه أبناء هذا الشعب نحو التعليم العالي ، ليس فقط من أجل الإرتقاء أو المحافظة على النهضة الأدبية في فلسطين ، بل بدافع الشعور الوطني ، وتوفير سبل الاقتصاد الأفضل لتسخيرها في طريق العلم والثقافة خدمة لقضية الوطن [٢] .

بهذه العوامل مجتمعة ، تأثر شاعرنا محمود درويش منذ طفولته ، يوم رحل عن قريته مشيا على الأقدام ، الى ان عاد متسللا من لبنان الى فلسطين بعد

---

(١) رجاء النقاش ، محمود درويش شاعر الأرض المحتلة ، منشورات دار الهلال ، القاهرة ، ١٩٦٩ ، ص ٨ ، ص ٩ .

(٢) غسان كنفاني ، أدب المقاومة في فلسطين المحتلة .

عامين من نزوحه ، والى أن أصبح شابا شاعرا ، يرى بأم عينيه شـــريط مآســـي شعبه ، في داخل الوطن المحتل ، وفي أرض الشتات .

شعر الاغتراب :

(١) المفهوم والتطور :

تطور مفهوم الاغتراب لدى عدد من الأدباء والنقاد ، على أنه الحـــط مـــن قدر الانسان وإهدار فرديته ، نتيجة مجموعة من العوامل المصاحبـــة لظـــروف التغيرات الاجتماعية والتكنلوجية الحديثة . ويعرف الاغتراب بانه الشعور بـــالبُعد أو العزل أو الإنغلاق ، ويكون غربة أو اغتراب نفسي معنوي وجسدي لدى الفرد على شكل بمعنى الإنتقال الى مكان ما ، مع تغير هذا المكان ونزوح النفس عـــن شـــيء آخـــر . من هنا ، جاءت الغربة النفسية والجسدية والتي قد تكون طوعيـــة أو قسرية . كما أن المصطلح (الغربة) استخدامات متنوعة في التراث الفكـــري واللغوي والاجتماعي والنفسي ، ولقد كان لهذا التنوع فـــي اســـتخدام مصطلـــح الاغتراب نتيجة مصاحبة لتنوع الاتجاهات الفكرية والنفسية والاجتماعيـــة لـــدى الشخص والمجموع . وقد اهتمت الدراسات بتناول مفهوم الاغتراب من واقع تلـــك الانماط الحياتية [١] .

وهناك أنواع أخرى من الغربة ، منها الفكرية والسياسية ، وأشـــدها مشـــقة الغربة الوطنية أواللجوء أو النزوح قسرا ، وهذا النوع من الغربة أشـــدها بـــلاء وأكثرها إيلاما على النفس ، وأبعدها أثرا في نمط السلوك . وغالبا ما تنعكس على النتاج الفكري ، أو الثقافي ، أو السياسي وخير مثال لما تقدم غربة الشعب العربي الفلسطيني عن وطنه ، والتي انعكست في ثقافته ، وفكره وأدبه ولا سيما الشـــعر منه .

وتسّيدت ظاهرة الغربة من خلال البعد عن الوطن ، والحنين إليه ، وضيـــق النفس والمكان في ديار الاغتراب . وبسبب النزوح القسري ، أحس الشعراء فـــي

(١) السيد علي شتا ، نظرية الاغتراب من منظور علم الاجتماع ، ١ .

داخل الوطن وخارجه بألم البعد والحرمان والقهر ، وظهرت ملامح الغربة والتمرد في الشعر ، الذي صوّر حياة التشرد والاذلال والجوع في مواطن الاغتراب ، ثم الحنين الى مرابع الطفولة ، وعند شعراء الداخل ظهرت في معاني رفض الاحتلال ، والحض على الصمود والمقاومة ، والتمسك بالأرض ، وابراز الوجه الوحشي في صيغ العدوان والظلم والقهر ، وما الى ذلك .

وشعر الاغتراب لون واضح القسمات في أدبنا العربي مثل شعر الغزل والرثاء والمديح والفخر ، بل لعله تميز بملامح قلما تكاملت في لون من ألوان الشعر الأخرى ، لكثرة ما عانى الشعراء في هذا العصر من الاضطهاد والغربة والتشرد ، لكننا في الوطن العربي ، اعتدنا ان ننظر إلى شعرنا في أطر معينة ، فمنذ قسم (أبو تمام) في ديوانه الحماسة الشعر العربي إلى أقسامه المعروفة التزمنا هذا التقسيم أما شعرنا الحديث ، فنظر اليه في الغالب نظرة عامة ، الشعر الرومانطيقي ، الرمزي ، الواقعي ، الحر .

ولا شك أن هناك ظروفا سياسية واقتصادية واجتماعية أو حضارية بمعنى أدق ، كان لها أثرها في اتجاهات شعر الحنين والغربة ، تسيره وتنقله عبر الزمان والمكان . فقد ضمرت فروع ونبتت فروع أخرى .. فكل ما في الأمر أن الاغتراب أصبح اغترابا منظما [١] وهكذا كانت غربة الشاعر محمود درويش في وطنه . ويشير (لويس فيوبر) الى أن الاغتراب يستخدم لإيضاح السمة الانتقالية التي تصاحب أي سلوك يجبر فيه الشخص التعبير عن افتقاد الشعور بالرضى [٣].

(٢) الاغتراب عند شعراء الداخل :

بسقوط الجزء الأكبر من أرض فلسطين عام ١٩٤٨ على يد الإسرائيليين ، لم يكن قد تبقى ، تقريبا في فلسطين ، أي محور ثقافي عربي يمكن أن يشكل نواة لنوع جديد من البعث الأدبي ، وكان جيل كامل من المثقفين قد غادر فلسطين إلى المنفى القسري ، ولم يبق ثمة إلا مجتمع عربي قروي في غالبيته الساحقة ،

(١) انظر ماهر حسن فهمي ، الحنين والغربة في الشعر العربي الحديث : ٥ ، ٦ .

(٣) الاغتراب ، ريتشارد شاخت : ٣٠٠ .

يخضع لحصار سياسي وإقتصادي وثقافي في إطار الهيمنة العسكرية ، وكلمة الحصار الثقافي نعرفها من خلال الاطلاع على الوضع الاجتماعي السيىء للسكان العرب والذي ينعكس بدوره على وضعهم الثقافي ، بعد ان أغلقت في وجوههم سبل العلم والمعرفة ، وتحولت مدنهم العربية الى مدن يهودية محرمة عليهم ، فانتصب جدار المقاطعة الثقافية الاجبارية مع الأدب العربي في عواصمه ، فانقطع عرب الأرض المحتلة عن مواكبة التيارات الحديثة وتبادل التأثير والتأثر معها . كما أن وجود الأحكام العسكرية ، ومحدودية وسائل النشر المراقبة من السلطة ثم ضعف مستوى إتقان اللغات الأجنبية في أوساط عرب الأرض المحتلة وخصوصا في الأرياف ، أدى الى انقطاع شبه كامل عن حركة الأدب عربيا وعالميا وتأثيراتها [١] وهذا يوضح المقصود من عبارة (الحصار الثقافي) ، التي يجب وضعها في الاعتبار عند عرض انتاج الشاعر محمود درويش ، الذي استطاع ان يكون مع رفاقه شعرا مقاوما .

وفي هذا الجو العام ، الذي هو جو الاحتلال والحصار والقهر ، كان الشعر هو السباق للتعبير عن حالة الناس اليومية ودعوتهم الى المقاومة ، كنوع من الرد على حالة الاغتراب الداخلية وكان الشعر سباقا ، كونه ينتشر دون ان يطبع فيتناقله الناس . وقد فرضت هذه الضرورة ما هو أكثر من الانتاج الادبي والشعري فقط . فرضت أسلوبا معينا في هذا الانتاج ، هو الالتزام بالعمود التقليدي الذي يحمل استعدادا أكثر لسهولة التداول من ناحية ،ولتلبية الحرارة العاطفية المطلوبة من ناحية أخرى [٢] ، لأن هول الكارثة وفداحتها يتطلب شعرا سريعا صريحا ، قد طغت على موسيقاه مسحة الحزن العميق ، الذي ينسجم وحجم المأساة التي تضطرب في ذات الشاعر ، ويحسها ويراها في وجوه كل من حوله . كما لجأ الشاعر محمود درويش ومعه معظم شعراء الداخل الى الرمز أسلوبا في نظم شعرهم ،تخلصا من رقابة المحتل ، وايجازا للتعبير عن معان خاصة في

(١) أدب المقاومة في فلسطين المحتلة :١١ ، ١٢ .

(٢) المرجع السابق .

النفس ، يستودعها كل صاحب معاناة من أبناء الشعب ، كما تسللت الى أشعارهم ، بعض الملامح الشعرية الحديثة دون أن تأخذ مداها في أشعارهم ، كالشعر الحر والمرسل والواقعي وكان إدراكهم الواعي لإبعاد أهداف شعرهم ، إضافة أهداف جديدة للشعر ، منها وظيفته الوطنية ، وإسهامه في الروح الجماهيرية لدى الشعب وميز هؤلاء الشعراء ومنهم درويش ، بميزات خاصة ، أظهرها ما كان يتردد صداه في خنادق الجبهة الوطنية والانسانية ، ضد الاستعمار والظلم الاجتماعي ، حيث بات هذا الشعر (ثوربا) ينطق بلسان الحرية [١] :

ولكن سرعان ما تغير اسلوب الشعر وشكله في الأرض المحتلة ، فنرى محمود درويش يقرر مع صديقه (سميح القاسم) حركة الخروج على العمود الشعري التقليدي ، دون أن يفقدا الحرارة في شعرهما ، كما نرى في مخاطبته لفتاة فلسطينية في المنفى فيقول :

ونعبر في الطريق... مكبلين ... كأننا أسرى
يدي ، لم أدر ، أم يدك ..احتست وجعا من الأخرى [٢]

ويصور (سميح القاسم) علاقته بالعرب خارج فلسطين ، بأنها نوع من التمرد والرفض لحالة الاغتراب التي يشعر بها الفلسطيني داخل وطنه فيقول من قصيدة له عن اليمن ، تلمس فيها وقفة مشتركة مع درويش في حبه للوطن بمفهومه الكامل :

لا يعبر بالشباك صباح ...
الا وتطل في من الأفق المعبود جراح
جرح في صدر صعيدي
جرح في صدر حديدي أسمر
وجراح في صدر تعز السمراء

(١) عبد الرحمن ياغي ، شعر الأرض المحتلة في الستينات ، ٦١٣ .
(٢) علي الجابري ، الغربة في شعر درويش / مخطوطة :٢٧ .

نسقي زنبقة الحرية
في سفح الجبل الأحمر
وتسيل ربيعا في عطش الصحراء
صحرائي العربية [١]

ومع نهاية الستينات ، واقتراب السبعينات ، يودع درويش والقاسم سجنهما في مدينة (حيفا) حيث شاعت وانتشرت أشعارهما المناضلة ، التي تجسدت فيها خاصة الشعور بالغربة النفسية داخل المعتقل ، وتبلورت عندهما الصورة النهائية لذلك المزج المنطقي العميق ، بين الإنسان والأرض .

ويكتب (درويش) في السجن ديوانه (عاشق من فلسطين) وهي مجموعة قصائد ينتظمها خط واحد عندما يوزع عواطفه بالتساوي بين المرأة والوطن ، فيقول في قصيدته فلسطين :

واقسم..
من رموش العين سوف أخيط منديلا
وانقش فوقه شعرا لعينيك
وإسما حين اسقيه فؤادا ذاب ترتيلا
يمد عرايش الايك
سأكتب جملة أحلى من الشهداء والقبل
فلسطينية كانت...ولم تزل [٢]

وهكذا ، نرى الاغتراب يتجسد في كل كلمة قالها هؤلاء النخبة ، بفعل عامل الاضطهاد والقهر داخل الوطن المحتل ، إذ يصبح الرفض مظهرا للتفرد مجاله الاغتراب والتمرد والتحدي فعندما يقول (توفيق زياد ابن الناصرة) والذي قال عنه عز الدين المناصرة انه شاعر الشعب والقضية :

---

(١) المرجع السابق :٢٧ .

(٢) محمود درويش ديوان عاشق من فلسطين ، مطبعة اوفيست الحكيم ، الناصرة :١٩٦٦ ، اصدار مكتبة النور ، حيفا ، ١٩٦٦ .

أهون ألف مرة ...أن تدخلوا الفيل في ثقب إبرة
وأن تصيدوا السمك المشوي في المجرة
وأن تحرثوا البحر .. أن تنطقوا التمساح
أهون ألف مرة .. من أن تميتوا باضطهادكم وميض فكره
وتحرفوننـــا عن طريقنـــا الذي اخترناه
..... قيد شعره (١)

لقد واجه شعراء هذه المرحلة ، داخل الوطن ، عدوهم ن بالسخرية الشعرية الجارحة الرافضة ، لكن درويش في اغترابه عن الواقع الصهيوني المراد رفضـه نكان مترفعا متمردا أبدا ، دونما مهادنة .

ويرحل الشاعر (هارون هاشم رشيد) عن غزة مكرها ، فيبكي اغترابـــه القسري في هذه الأبيات الحزينة :

أ وداعا فيم يا غزة بالله الوداع
وانا منك تراب وشعور والتماع
وحنين المسحوق .. شوق والتياع
أنا إن ودعت فهناك الضباع
وتلقني ذئاب جائعات .. وضباع (٢)

إن جراح الاغتراب عند شعراء الأرض المحتلة نزيف دائم لا يجف ، كمـا أنه تساؤل عن معاناتهم ومأساتهم على أرض وطنهم ، فيه سمات الحـــيرة التـــي تتفجر في وجه الانسانية كلها ، عندما نسمع الشاعر (خليل زقطان) وهو اللاجئ المرحل عن وطنه في ديوانه صوت الجياع :

أنا قد صحوت على جراح تسيل من بعضي لبعضي
أنا قد صحوت واذ أنا ملقى بأرض غير أرضي
أنا قد نظرت المستجير واذ به يا قوم عرضي

(١) توفيق زياد ، ديوان توفيق زياد ، دار العودة ، بيروت ، ١٩٧٠ ، ص ٢٧٠ .
(٢) هارون هاشم رشيد ، ديوان الغرباء ، ط ١ ، القاهرة ، ١٩٥٤ .

أنا من أنا ؟ لا شيء ! والأعداء رابضة بغيابي
أنا ليس يجديني البكاء أو التحدث عن مصابي
ما هذه الأغلال ؟ ! ما معنى نزوحي واغترابي ؟ (١)

وجاء تعبير (خليل زقطان) في تلك الأبيات سهلا بسيطا في لغته ، عميقا في معناه ، وأن من يقرأ شعر زقطان يجد الانسجام التام بين الأسلوب الغنائي في شعره والأسلوب الحماسي المتفجر في معانيه وألفاظه .

(٣) الاغتراب عند شعراء المنفى :

يتصل شعر الاغتراب الفلسطيني في المنفى اتصالا مباشرا بخيمة اللاجيء في دنيا الاغتراب عن أرض الوطن . فقد كانت الخيمة في نفوس العرب قديما صورة مشرقة محببة ، باعتبارها بيت العز الذي يأويهم ، أما بعد ان تحولت هذه الخيام إلى رموز لتشرد شعب منفي مرحل عن وطنه ، باتت تشكل صورة بشعة لا توحي إلا بالضياع والتمزق والاغتراب عن مسقط الرأس العزيز على النفس المحفور في سويداء القلب .. وفي هذا يقول الشاعر (رجا سمرين) :

وصمة انت في جبين الدهور يا خياما في القفر مثل القبور
يا نشاز الأنغام ، يا بسمة التاريخ والناس في جميع العصور
أنت يا مأوى للبؤس ، شيدك الظلم على رسم حقنا المهدور
أنت سفر الآلام ، سطره البغي بأيد مخضوبة بالشرور
كم حوى نسجك الإرث عزيزا يسفح الدمع في دجى الديجور (٢)

وهكذا تحولت إلى رموز للقيود ،شيدها البغي ، فلا تحوي إلا العذاب والمعاناة والاغتراب .وتتغير الصورة الشعرية من شاعر الى آخر ن ولكن الرمز يبقى مجردا مخيفا ،كأنه شبح الخطيئة أو حمحمة الموت وهي مشدودة في الارض رافعة شراعها كالاكفان ، كما يصور ذلك الشاعر (كمال ناصر) .

---

(١) ديوان صوت الجياع : ١٢ .

(٢) كامل السوافيري – الشعر العربي الحديث في مأساة فلسطين – مصر – مطبعة النهضة – القاهرة :٤٧٤ .

مشدودة في الارض منصوبة كأنمـا شـدت بأيدي الهـوان
أكفانهـا مشرعـة للـردى تطوي جراحات الردى في أمان
يا خيمـة أعرفها في الأسى فات عليها في الرجوع الأوان [١]

ويكتسح السيل خيمة اللاجئ التي أبلاها كر الجديدين ، فلا تجد منها غير الحبل والوتد ..وهكذا أصبحت خيمة الاغتراب القسري ، تستتبع بالضرورة صورة اللاجئ ، كما يرسمها الشاعر (معين بسيسو) :

لم يتـرك السيل غير الحبل والوتد مـن ذلك الشـعب أو من ذلك البلد
أو غير ما شاهدت عيناك من جثث منفوخـة لم تـزل مجهولة العـدد
هنا حطام ، هنا صوت ، هنا غرق هنـا بقـايا رغيـف عالـق بيـدي
تلك البقيـة مـن شعبي ، فذاك أبي وتلك أمي ، وما في الجيش من أحد
ان جئت تسأل عن أطفالها صرخت وقهقـه السـيل .. لم تحبـل ولم تلد [٢]

غير ان الشاعر (خالد نصرة) يعالج الفكرة من زاوية أخرى ، الوطـن فيها أم أرضعته المحبة ، والشاعر يفارقه ويده على كبده لوعة وحسـرة ، واليـد الأخرى تلوح بالوداع ، والأم قد فقدت ولدا بعد الآخر ..

رضعت من ثدي حرماني محبته وان أخـذت بذنب ليسـت جانيه
فارقتـه ويـدي تغفو على كبدي في لوعة ، واليـد الأخرى تحييه
ومهجتـي بين أضلاعي مرفرفة كالطير ، قـد شكه بالسهم راميه
وسرت ولست اظن الله يغفر لي وإن شـقيت به مما يعانيـه
مـن كل لاجئـة لاذت بخيمتها تناشد القلـب أن يخلو لماضيـه

ولا يختلف موقف الشعراء ، في الوطن العربي عن موقف شعراء الاغتراب من أبناء فلسطين فالنبع الجديد الذي يشربون منه ، هو حلم العودة إلـى الوطـن السليب ، والأمل في أن يشرق الصباح الجديد على الوطن الأم ، وهو يتسع خطى أبنائه المغتربين .

(١) كمال ناصر – ديوان جراح تغني – بيروت ، ١٩٦٠ ، ١٩٩ .
(٢) معين بسيسو – ديوان المعركة ، دار الفن الحديث ، القاهرة ، ١٩٥٢ ، ص ٥ .

ونرى الشاعر (هارون هاشم رسيد) يعبر عن هذه المعاني في هذا القسم حيا في نظم قصيدته في يوم عيد الميلاد ، حين يرفض الاحتفال ، حتى يعود من غربته ، ويرى وطنه ، يلقي عصى الترحال . وهو يرسم صورة الاغتراب ن ويعبر عن نفسية المغترب وعواطفه وآماله وآلامه .ز هذه النفسية التي تملك حرية الرفض وحرية الاختيار :

أنا لن أعيش مشردا أنا لن أظل مقيدا
أنا لي غد ، وغدا سأزحف ثائرا متمردا
أنا لن أخاف من العواصف وهي تجتاح المدى
أنا صاحب الحق الكبير ..وصانع منه الغدا
أنا ثورة كبرى تزمجر بالعواصف والردى
انا نازح داري هناك وكرمتي والمنتدى
لي موعد في موطني ..هيهات أنسى الموعدا [١]

ونحس في شعر الشاعر هارون هاشم رشيد أن الاغتراب عن الوطن ومسقط الرأس مأساة عظيمة ، قد يخسر فيها الانسان كرامته وكبريائه . كذلك نلمس " ان اغتراب شعب فلسطين ، كان معادلا لاغتراب الشعب العربي كله ، الذي كان نائما في عصر اليقظة ، مفرقا في عصر التجمع ، ضعيفا في عصر القوة ، متقوقعا في عصر الانفتاح مقلدا في عصر التجديد . وقد كان غريبا بمقياس العصر اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا وثقافيا .. وكان لابد بعد هذه الصدمة ، أ ن يتم تطوير الواقع وتثويره ، وبدء مرحلة جديدة من مراحل البناء لسبق الزمن ... وما الشعر إلا تعبير عن الواقع الحضاري ، بل جانب هام من الكيان الحضاري نفسه [٢] .

وهكذا ، يصبح نداء العودة والحنين الى الوطن أغنية تتردد على ألسنة الشعراء في فلسطين وفي الوطن العربي كله ، بعد أن ملوا النحيب ، وألم اللجؤ

(١) خالد نصرة – اغاني الفجر – عمان – الاردن ١٩٥٥ ، ١٤ : ١٣ .
(٢) مع الغرباء– هارون هاشم الرشيد ، ط ١ ، بيروت ١٩٥٦ : ١١١ .

والتشرد والاغتراب القسري ، وسقط حاجز الرهبة بفعل تقادم الزمن الذي كان يحول بين صوت الوطن الأم وسمع أبنائها في النيه فيقول أبو سلمى :

تناديني السفوح مخضبات وفي الآفاق آثار الخضاب
تناديني الشواطيء باكيات وفي سمع الزمان صدى انتحاب
تناديني الجداول شاردات تسير غريبة دون اغتراب
تناديني مدائنك اليتامى تناديني قراك مع القباب
غداً سنعود والاحباب تصغي إلى وقع الخطى عند الإياب [١]

ولربما نجافي الحقيقة إذا حاولنا قصر استعراضنا لشعر الاغتراب الفلسطيني عند الشعراء الذي تقدم عرض أشعارهم ، دون أن نعطي لمحمود درويش حقه الأساسي كونه أحد ألمع شعراء فلسطين المنفيين ، والذي جسد في المرحلة الثانية من شعره – التي بدأت منذ اغترابه قسريا في بداية السبعينات إلى بيروت – كل معاني الغربة ، وجاءت بمعان جديدة وصور مختلفة عما عرف عند من سبقه من الشعراء ، مما اعتبره النقاد تطورا نوعيا في شعر الاغتراب .

ويرى ريتشارد شاخت في حديثه عن فلسفة الاغتراب أن معظم الكتاب الذين يستخدمون اصطلاح الاغتراب .. يدركون أن الاغتراب منظور إليه من خلال الشعور بالعجز في مواجهة الهياكل القائمة والأحداث الجارية هو أمر يتعين التمييز بينه وبين الاغتراب مفهوما من خلال معنى عبث هذه الهياكل والأحداث [٢] . وقد أثرت هذه الهياكل القائمة واللأحداث الجارية في الشاعر وتفتقت عن هذا التطور النوعي في الشعر ، بحيث جعلت من محمود درويش شاعراً يُشار إليه بالبنان من بين شعراء العصر الحديث .

(١) عبد الكريم الكرمي (ابو سلمى) – ديوان المشرد – دمشق ١٩٦٩ : ١٠
(٢) الاغتراب ريتشارد شاخت : ٢٢٥

الاغتراب في شعر محمود درويش

سكن الوطن نفس محمود درويش ، وسكن درويش كل ذرة رمل في تراب الوطن فرحل معه أينما حل ، يغنيه أشعاره التي ملكت عليه عقله ، وسكنت مشاعره وسيطرت على حواسه وخياله .

إن ظاهرة الاغتراب في شعر درويش لم تكتسب بمحض الصدفة ، بل كانت قدرا له ، مما عكس هذا القدر المؤلم على حياته الشعرية ، سواء داخل الأرض المحتلة أم خارجها عندما جسد اغترابه القسري بداية السبعينات .

لقد أيقظ درويش عاطفة شعبه المقهور ، المطرود من أرضه ، وعزز لديه الاحساس بالكرامة والانتماء الوطني من خلال تحويله الشعر الغنائي المملوء بالغزل ، إلى شعر اجتماعي ، يتحدث عن معاناة الفرد والأسرة والمجتمع ، ويرسم صور التشرد والنفي والتعذيب الذي عاشه ويعيشه شعبه [١] .

فما أن حلّت بداية الستينات ، حتى أخذ نجم درويش الشعري بالسطوع وذلك عندما قدم شعره في تلك الفترة تفسيرا رائعا للحلقة المفقودة التي وقعت بين الانتقال بشعر الأرض من الصورة التقليدية المعروفة إلى الشعر الوطني والقومي "بعد سنوات قلائل تلت مطالع الستينات ينجح درويش " وغيره من أمثال : سميح القاسم وتوفيق زياد وراشد حسين ن في تجنيد عواطفهم داخل موقف المقاومة ، الذي لم يكن اختيارا سهلا ، بل كان معركة يومية ، معركة حياة او موت .. "[٢] .

إلا أن الميدان الحقيقي لشعر المقاومة في تلك الفترة ن بقي رواجه في المهرجانات العنيفة ، ونشره الحقيقي عن طريق الحفظ ، عاكسا ما عرف بشعر المنفى فما بعد ن ليس بكاء ولا بأسا ، ولكنه اشراق وطني دائم ، وأمل يستثير الاعجاب ، فانتشر بسرعة كبيرة ، وتكيف مع الاحداث العربية السياسية منها والاجتماعية واعتبرها اكمالا لرسالته وجزءا من مهمته في تعبئة روح الجماهير وبث روح المقاومة فيها .

---

(١) الغربة في شعر درويش :١٩٦ .

(٢) وليد جرار – شاعرا ن من جبل النار – مطبعة الشرق الأوسط – ١٩٨٥ :٧٥ .

إن من يقرأ ديوان محمود دويش (عصافير بلا أجنحـــة) يـراه يتغنـى بالنضال التحرري الوطني والقومي والعالمي ، من مثال قصيدته (ليلى من غزة) يحاول ربط مصيره في الداخل بمصير الفلسطيني الاخر في "غزة " فـــي إطـار اغتراب عام موحد . فحين هدم اليهود قريته (البروة) قال :

أنا في تربك يا بلادي رعشة الدفء الفتية
أنا في كروم التين في البراري العسجدية
وهنا جذوري في ترابك
كيف تقلعها أياد أجنبية [١]

لقد جاء شعر " درويش "رسالة سامية في التحرر / بحيث أصبحت فكـرة مجسدة لحقيقة يؤمن بها ، ويرسمها في شعره الذي بداعميقا ن بعيدا الأثر والمعنى ن سامي الهدف ، عالي الصوت ن كما كان محبا للأرض يتوحد معها ومع إنسانها وليس مع الطبيعة في ذاتها ن لن الأرض في تصوره ، هي التي تعطي الطبيعـة اللون والطعم والرائحة ، فيقول :

وطني ليـس حزمة من حكايا ليس ذكرى ، وليس حقل أهله
وطنـي ليس قصـة أو نشيدا ليس ضوءا على سوالف فلـه
هذه الارض جلد عظمي وقلبي فوق أعشابها يطير كنحلـة [٢]

وعن مقاومة الاغتراب في الوطن ، نرى الشاعر يدعو الى الصمود والتثبت بالأرض ، كما في قصيدته (الصمود) :

إنا نحب الورد
لكنا نحب القمح أكثر !
ونحب عطر الورد
لكن السنابل منه أطهر
فاحموا سنابلكم من الإعصار

(١) ديوان الوطن المحتل – والغربة في شعر درويش :٤٠ .
(٢) المرجع السابق : ٤٥ .

بالقدم المسر !

لقد ركز الشاعر (درويش) في الكثير من أشعاره على الرمزية كي يتقي سطوة المحتل ، ويعبر بهذه الرمزية شدة تعلقه بالأرض دون خوف . وقد اتخذ الشاعر في الرمزية شاهدا على علاقته مع الأرض ، وهي "عاشق من فلسطين " قد أراد أن يقول في تأكيد صارخ ، ومباشر وفي سبعة أسطر متعاقبة :

فلسطينية العينين والوشم

فلسطينية الاسم

فلسطينية الأحلام والهم

فلسطينية المنديل والقدمين والجسم

فلسطينية الكلمات والصمت

فلسطينية الميلاد والموت [١]

كذلك في قصيدة الرباعيات ، تحس وجع الغربة ، والتعلق بالأرض في كلمة الشاعر ، حين يقول في قصيدة رباعيات :

من ثقوب السجن لاقيت عيون البرتقال

وعناق البحر والأفق الرحيب

فاذا اشتد سواد الحزن في إحدى الليالي

أتعزى بجمال الليل في شعر حبيبي [٢]

لقد أحب (درويش) وطنه حبا لا يُجارى ، حبا تقرأه في كل حرف من حروف قصائده الوطنية ففي قصيدته " المستحيل " التي كتبها الشاعر معبرا عن شدة حبه لوطنه ، وتعلقه بكل ذرة تراب من ثرى وطنه :

أموت اشتياقا

أموت احتراقا

وشنقا أموت

---

(١) المرجع السابق : ٤٥ .

(٢) ديوان أوراق الزيتون : ١٣٣ .

وذبحا أموت

ولكنني لا أقول :

مضى حبنا ، وانقضى .

حبنا لا يموت [١]

فالشاعر يكاد أن يقتله حب وطنه ، وشوقه الزائد اليه ...ورغم ذلك فهو يؤكد على استمرار هذا الحب ، ولو كانت النتيجة واحدة مما ذكر .

وبالمعاناة نفسها ن وبمرارة الاغتراب المعروفة عند درويش ، ثم بحب الوطن الزائد والتعلق بالأرض ، يقول في قصيدته (رسالة من المنفى) :

تحية ....وقبلة في الخد

وليس عندي ما قول بعد

مـــــن أين ا بتدي ؟ ... وأين أنتهي ؟

ودورة الزمان دون حـد

وكل مافي غرفتي

زوادة ، فيها رغيف يابس ، ووجـــد

ودفتر يحمل عني بعض ما حملت

بصقت في صفحاته ما ضاق بي من حقد [٢]

ان الخاصية التي نراها في شعر (درويش) هي خاصية التجارب النفسية والمعنوية لمن تعلق بتراب وطنه ، معززا هذه الخاصية مـن خلال الارتباط المعنوي بنفسية أبناء شعبه .

لم يكن درويش شاعرا رمزيا بالمعنى الحرفي الدقيق "وإنما هـو شاعر واقعي تماما يستخدم الرمز كأداة من أدوات التعبير عن الواقع ، ومن هنا تتشح

(١) محمود درويش – ديوان آخر الليل ، وديوان الوطن المحتل ، ص٢١٦ .

(٢) محمود درويش – ديوان أوراق الزيتون ، ديوان الوطن المحتل ، ص١٢٢ .

رموزه برداء رقيق شفاف يغني الواقع ويغري على حسن معالمه " [١] وأصبحت القرية في شعره تجسد رمزا للحرية التي تتوق اليها نفسه رغم شعوره بالاغتراب الكبير داخل الوطن المحاصر من الماء الى الماء :

افتحي الأبواب يا قريتنا ... افتحيها للرياح الأربع
ودعي خمسين جرحا يتوهج ... كفر قاسم
قرية تحلم بالقمح وأزهار البنفسج .. وبأعراس الحمائم
إنني مندوب جرح لا يساوم
علمتني ضربة الجلاد ... ان أمشي على جرحي
وامشي ثم أمشي ... وأقاوم [٢]

كما جسد هذا التوحد بين الفلسطيني وأرضه من خلال التشبث بالبقاء عليها والتمسك بها ، والموت في سبيلها :

آه يا جرحي المكابر
وطني ليس حقيبة
وأنا لست مسافر
إنني العاشق والأرض حبيبة [٣]

إنه التلاحم والتجسد الذي لا ينفك عراه أبد الدهر ...

كذلك جعل الشاعر حب الأرض والثبات عليها أساسا رئيسا لأي عمل وطني ،لذا كان عليه ان يبرز العلاقة التاريخية بين الإنسان والأرض ، في قصيدة ثلاث صور :

أبي من أسرة المحراث
لا من سادة نجب

---

(١) حسين محمود – شعر المقاومة الفلسطينية ، الوكالة العربية للنشر والتوزيع ، الزرقاء – عمان – ١٩٨٤ : ١١٩ .

(٢) محمود درويش شاعر الأرض المحتلة : ١٨٥ ، دار العودة ،بيروت :١٩٦٦ ،ص ١٨٥ .

(٣) ديوان عاشق من فلسطين ، والأعمال الكاملة لدرويش ، دار العودة ، بيروت :١٩٨٣ .

وجدي كان فلاحا
بلا حسب ولا نسب [١]

وعلى لسان أطفال المنفى ، أولئك الأطفال المعذبين المشردين في كل أصقاع المعمورة تقودهم الذكريات الأليمة الحزينة إلى دنيا الوطن ، إلى حيث الآباء والأجداد ، بكل ما يحملون من ذكريات ، ذكريات بثها الشاعر في قصيدته "تموز والأفعى فقال :

وتساءل الأطفال في المنفى
آباؤنا رصفوا لياليا هنا ... رصفا
عن مجدنا الذهبي
قالوا كثيرا عن كروم التين والعنب
تموز عاد ، وما رأيناها ...
وتنهد المسجون : كنت لنا
يا محرقي تموز معطاء
رخيصا مثل نور الشمس ، والرمل
واليوم تجلدنا بسوط الشوق ...والذل !! [٢]

لم يرض درويش بواقعه المؤلم ، بل ثار ، وتمرد ، وحرض ، وجعل من شعره الرافض مدرسة لأبناء أمته وللبشرية ، عندما قال في قصيدته (عن انسان) :

وضعوا على فمه السلاسل
ربطوا يديه بصخرة الموتى
وقالوا : أنت قاتل !!
أخذوا طعامه والملابس ، والبيارق

(١) يوميات جرح فلسطيني ، والأعمال الكاملة لمحمود درويش :٤٥ ، دار الأسوار – عكا (د. ت) .
(٢) ديوان عاشق من فلسطين والأعمال الكاملة لمحمود درويش .

ورموه في زنزانة الموتى ،
وقالوا : أنت سارق !
طردوه عن كل المرافئ
أخذوا حبيبته الصغيرة
ثم قالوا أنت لاجئ !! (١)

بهذه الروح الثورية الرافضة المقاومة عبر درويش عما في نفسه من انفعالات وعواطف نحو وطنه وبني أُمته ، وكره لمغتصب أرضه ...ونحن نعتبر شعر النضال الفلسطيني في المنافي ، شعر مقاومة ضد الوجود الاسرائيلي ، لتوحد هذا الوجود حقيقة مع وجود الاستعمار الذي يرعاه .. (٢) .

وبنفس الروح نستشرق معاني الغربة والمرارة ، وصدق المعاناة ، ولوعة الحرمان ، وذلك في قصيدته الطويلة (عاشق من فلسطين) ومنها :

وأنت كنخلة في الذهن
ما انكسرت لعاصفة وحطاب
وما جزت ظفائرها
وحوش البيد والغاب ...
ولكني أنا المنفي خلف السور والباب (٣)

إن من يقرأ ثقافة الفلسطينيين يحس بأنهم قبلوا القيم الثقافية المشتركة لثقافتهم ، التي تتوجها معاناة الاغتراب ، كما يقول كينستون " أن معظم الشباب من الجنسين في أي مجتمع من المجتمعات قد قبلوا القيم الأساسية المشتركة لثقافتهم ، وحينما يمنى هذا التثقيف بالفشل ولا يقبل الفرد هذه القيم الأساسية فان نمطا من الانفصال الاجتماعي والثقافي ينشأ متميزا عن ذلك النمط ... " ويختار كينستون " قصر اصطلاح الاغتراب على الرفض الصريح والحر الذي

(١) أوراق الزيتون ، مطبعة الاتحاد التعاونية ، حيفا ١٩٦٤ ، وديوان الوطن المحتل : ١١٠ .
(٢) شعر المقاومة الفلسطينية _ج٣ .ص ٣٠ .
(٣) عاشق من فلسطين ، مكتبة النور ، حيفا :١٩٦٦، وديوان الوطن المحتل :١٦٦ .

يختاره الفرد لما ينظر اليه على أنه القيم والأعراف السائدة في المجتمع " [١] وهكذا كان درويش في شعره ، رافضا لواقعه المر ، كارها لمعاناة شعبه المشرد في شتى أصقاع الدنيا ، مقاوما لهذا الاغتراب الذي أصبح قدرا مفروضا على الأحرار .

درويش .. يرسم صورة الشعر الجديد في وطنه !

أيقظ شعر درويش عاطفة جماهير شعبه ، وعزز لديهم الإحساس بالإنتماء إلى الأرض ، عندما رسم طريق تحويل الشعر في وطنه من الغنائي إلى الاجتماعي والوطني ، واضعا بذلك خطوطا عامة ، وأهدافا أساسية في خدمة قضية وطنه ، بنقله الشعر من دور التقريظ المتكئ على المديح في بداياته ، إلى دور المشاركة في النضال ، فبات الشعر العربي في فلسطين يقود الحركة الوطنية [٢] .

لقد حرك شعر درويش أبناء أُمته وشعبه ، وبث فيهم روح التحدي وحب الأرض في قصائد جديدة بنقلة نوعية من الوصف التقريري إلى التصوير النامي للأحداث القائمة ، وبات يشكل أداة للمقاومة الفكرية، وامتزج فيه الحس بالفكر امتزاجا لم تظهر فيه الازدواجية [٣] وبذلك يكون قد نقل الشعر من طور مدرسة تقليد القديم في أغراضه وبنائه إلى المدرسة الواقعية الحديثة ، ثم إلى المدرسة الرمزية التي تجنبه سطوة الاحتلال .

إن ظاهرة الاغتراب سمة بارزة في شعر درويش ، تركت أثرها الفعال في نفسية أبناء وطنه ، لأنه يتحدث عن همومهم اليومية ، وقضاياهم القومية والوطنية ، وربط قضيتهم بقضايا التحرر في العالم ." فقد ساهم في نقل الشعر العربي الفلسطيني من دائرة الاقليمية إلى دائرة القومية ، ثم إلى دائرة العالمية ،

---

(١) الاغتراب ، ريشارد شاخت : ٢٣٩ .

(٢) عبد الرحمن ياغي ، حياة الادب الفلسطيني الحديث من أول النهضة حتى النكبة – منشورات المكتب التجاري بيروت ، ١٩٦٨ :٦٠٧ .

(٣) المرجع السابق : ٦٠٧ .

فأكسبه خاصية الذيوع والانتشار والجماهيرية " [١] . فكان بحق الصوت الفلسطيني الراحل المسافر المغترب ، مما أعطى الشعر على الساحة الفلسطينية مكانته الأدبية في المنتديات العربية والعالمية . واكسب قضية بلاده المزيد من النصرة والمؤازرة .

ترك درويش بصماته واضحة على الشعر العربي ، عندما جعل من شعره صوتا لقضيته ، ونشيدا يوميا لمناضلي وطنه ، فكان يقول : " إنني أحاول أن أؤسس مطالع للنشيد ، لأن تجربة الشعب الفلسطيني وقدرته على البقاء تحتاج الى فريق عمل أدبي [٢] وبالفعل كان له ما أراد ، عندما جعل من شعره – في مرحلة ما أغنية وطنية على كل لسان .

إن سر نجاح درويش في كونه يداوم على إعادة النظر في بنائه الشعري باستمرار أي أنه حريص على تطور تجربته الشعرية ، وأحداث تجديد في حركة الشعر في الأرض العربية الفلسطينية . كما أنه الشاعر الذي أسهم في فك القصيدة من أسارها الزماني والمكاني ، لتكون قصيدة الحرية ، وذلك عندما تمكن بشاعريته الفذة " من تجنيد عاطفة التحدي داخل موقف المقاومة الذي اختاره الادب والشعر العربي الفلسطيني الحديث " [٣] .

لقد أصبح شعراء الأرض المحتلة من فلسطين حقيقة واقعة ، إذ ميز هؤلاء الشعراء ومنهم درويش ، شعرهم الفلسطيني بميزات خاصة " أظهرها ما كان يتردد صداه القوي في خنادق الجبهة الوطنية والقومية ، والإنسانية عامة ، ضد الاستعمار والظلم الاجتماعي ، حيث بات هذا الشعر ثوريا ينطق بلسان

---

(١) الغربة في شعر درويش : ١٩٨ .

(٢) مقابلة للشاعر مع مجلة المصور المصرية – القاهرة ، نوفمبر ١٩٨٦ .

(٣) أدب المقاومة في فلسطين المحتلة :٢٢ .

الحرية " [١] التي أصبحت هدفا مقدسا ينطق بكل حرف يخطه الشعراء والكتاب على الأرض الفلسطينية .

ومثل هذه الرؤية الشعرية ، وتلك الممارسة من لدن درويش وشعراء فلسطين ، نجدها منفتحة سلفا على كل المحاولات التجديدية والثورية في الأدب العربي والعالمي ، مثلما هي قادرة على التواصل مع كل المضامين الثورية في نتاجات شعرية ، لا تقدم نفسها سلفا على أنها ثورية ، بل هي معبرة عن طموحات وتطلعات وأماني شعب يخوض مقاومة من أجل حريته ، الأمر الذي يجعل من الشعر عاملا مساعدا في إشعال الثورة ، وإعطائها الزخم الشعبي والوطني ، سواء بإذكاء روح المقاومة ، وتنويرها بملامح الحرية ، أو بتبيان أوجه الغدر والوحشية في ممارسات المحتل ، لتحض المقاومين على تقديم المزيد من العطاء [٣] .

ولا أدل على ذلك من قصيدة درويش التي نظمها في الأول من ابريل عام ١٩٨٨م ، تحت عنوان (عابرون في كلام عابر) ، كرد أدبي ثقافي على وحشية مغتصبي أرضه ، وإشادة بإبطال الحجارة الذين يرى النصر مرسوما على وجوههم :

أيها المارون بين الكلمات العابرة ..احملوا أسمائكم وانصرفوا
وأسحبوا ساعاتكم من وقتنا ، وانصرفوا ..
واسرقوا ما شئتم من زرقة البحر ورمل الذاكرة
وخذوا ما شئتم من صور ، كي تعرفوا انكم لن تعرفوا
كيف يبني حجر من أرضنا سقف سماء [٣]

---

(١) شعر الأرض المحتلة في الستينات – دراسة في المضامين ، شركة كاظمة للنشر والتوزيع – الكويت ١٩٨٢ ، ط ٢ ، ص٦١٣ .

(٣) فواز الطرابلسي ، مقال بعنوان شعر الثورة ثورة في الشعر ، مجلة الكرمل عدد ٥ ، بيروت ١٩٨٢ :١٦٦ .

(٣) صحيفة الراية القطرية ، ص ٥ ، الدوحة ، في ١٥ / ٤ / ١٩٨٨ .

إن من يدقق في شعر درويش يجد " أن نظرته ظلت إنسانية نبيلة وشاملة ، نظرة تدعو إلى العدل ، ولا تدعو إلى الانتقام والثأر والحقد ، نظرة تدعو إلى إعادة الحقوق الضائعة دون أن تنزلق إلى مهاوي العنصرية التي اندفعت إليها الصهيونية ذاتها ، ومن قبلها النازية " [١] ، مما أكسب درويش مكانة مرموقة بين زملائه أولا ، وفي المنتديات الأدبية والثقافية العربية والعالمية ثانيا . ولا أدل على ذلك من قصيدته (عن انسان) إذ يقول :

يا دامي العينين والكفين ... إن الليل زائل
لا غرفة التوقيف باقية ... ولا زرد السلاسل
نيرون مات ، ولم تمت روما ... بعينيها تقاتل
وحبوب سنبلة تموت ... ستملأ الوادي سنابل [٢]

وهكذا ، فقد رسم محمود درويش أجمل لوحاته الشعرية الناطقة .. فهذه صورة مواطن فلسطيني وقد أدخل إلى غرفة التوقيف وقد قيد بالسلاسل الحديدية ، وعيناه تنزف ..وقد يموت تحت التعذيب ولكن شعبه لا يموت ..إنها صورة ناطقة من تلك التي اعتاد درويش على رسمها ؛ فكأني به قد حمل صندوق أصباغه ، وأخذ يلون بريشته كل ما أودعه الله فيه من موهبة شعرية ليجسدها في هذه اللوحة الرائعة .

الخصائص الفنية في شعر الاغتراب عند محمود درويش :

محمود درويش ابن بيئة وطن مجروح عانى الكثير ، فتفاعل مع هذه المعاناة التي خلفت بصماتها على كل نتاجه الشعري ، سلبا ام ايجابا ، عاكسا تطور أماني ومستقبل شعبه ، وإذا وجد شاعرنا نفسه في خضم قضية شعبه ، كان لا بد له ان يسلك منهجا ويرسم طريقا ، تختلف بعض الشئ عن شعراء عصره حتى أولئك الذين عاشوا قضايا وطنية أُخرى ، لكنها أقل مأساوية ، وأضعف أثرا من قضيته .

---

(١) محمود درويش شاعر الأرض المحتلة : ١٤٤ .

(٢) محمود درويش ، ديوان درويش ، دار العودة ، بيروت ١٩٨٣ ، ط ١ .

لقد تطور شعر درويش ودخل دائرة التعبير الحقيقي عن واقع شعبه ، عندما دخل عالم الاغتراب الذاتي ، مفضلا المنفى ، ليكون أفضل حرية في التعبير عن هذه الذات ، التي أفلتت من عقالها ، لتضيف إلى الشعر العربي الحديث نبعا ثرا موصول العطاء .

ان اغتراب درويش عن وطنه وتنفسه نسيم الحرية ، هيأ الفرصة لنقله نوعية للشعر العربي الفلسطيني ، من التقليدية الى أحسن حالات الشعر الحديث تطورا وحيوية ، بظهور أدب المقاومة الفلسطينية ، الذي أجاد تأطيره محمود درويش ، وأبرز سماته الوطنية .

ان شدة تعلق درويش بترابه الوطني جعلت نقاد العصر يطلقون عليه (مجنون التراب) ويرون فيه صاحب الكلمة التي استطاعت تحويل التركيبة النفسية لشعبه من خلال شعره – من حالة البؤس والتشرد إلى حالة التمرد والمقاومة .

" أنا شاعر حر ، اذن أنا ملتزم " عبارة مشهورة اعتاد درويش ترديدها ، واذا ما تسنى لنا قراءة تاريخ قرار الالتزام الثقافي العربي الحديث ، استطعنا أن نحدد مكان الشاعر محمود درويش في شعرنا العربي الحديث ، حيث ألزم نفسه قضايا وطنه أولا ، وتعايش مع أكثر من ثمانين بالمئة من يوميات الشعراء العرب ثانيا . هذه اليوميات التي تنقلها عشرات الآلاف من القصائد العربية ، حيث بات الشعر العربي شعرا ملتزما بالحياة العربية وقضاياها " [١] .

ان من يستعرض نتاج درويش الشعري ، منذ عرف على ساحة الشعر العربي كشاعر ملتزم ، ولا سيما ما يتعلق بظاهرة الاغتراب " يجد انه أحدث انقلابا أدبيا في حركة الشعر العربي الحديث في فلسطن ، ولم يعد دور الشعر

---

(١) شاكر النابلسي : مقال في صحيفة الشرق الأوسط – جدة ، العدد ١١٦٩ ، في ٢٢ / ١٢ / ١٩٨٦ م .

عنده قاصرا على التغني بالأمجاد الماضية وترديد مأساة الحزن فقط ، بل أصبح مدرسة ثورية بمعنى الكلمة " [١] .

ان المدقق في تجربة درويش في المرحلة الأولى من حياته الشعرية ، يجدها تجربة لم تصقل تماما ولم تأخذ طابع الانتشار الزماني والمكاني ، داخل الوطن العربي المحتل او على المستويين العربي والعالمي وربما يجد الباحث متعة اكثر وهو يدقق في المرحلة الثانية من حياته الشعرية التي تتزامن مع رحيله القسري عن وطنه الى عالم الاغتراب ، ثم الاستقرار في بيروت ، ثم رحله عنها عقب حصارها عام ١٩٨٢م عندما اتخذ الشعر طابعا جديدا واسلوبا مغايرا .

ان تجربة درويش الجديدة ، وابداعاته الفنية الرائعة ، تركت بصماتها واضحة على مسيرة الشعر العربي في فلسطين والوطن العربي ، وأخذت مسارا مغايرا للسمة التقليدية للشعر العربي من حيث الألفاظ والمعاني والصور والتراكيب والأغراض " نتيجة تأثر الشاعر بقراءته وثقافته الشعرية القديمة المستقاة من أشعار الشعراء العرب الأوائل ثم المحدثين وكان تأثر درويش كبيرا في هذه الفترة بنزار قباني وعبد الوهاب البياتي وبدر شاكر السياب ، وخاصة في اغراض الحب والغزل مع استعمال ألفاظ رقيقة وحديثة ، والنظم بالطريقة العمودية ، وطريقة الحر المرسل " [٢] . وبشئ من الرمزية دون الايغال فيها على عادة المهرجين .

لقد أخذ درويش يطور تجربته الشعرية مستفيدا من عطاء زملائه داخل الوطن المحتل – وهو عطاء غني – أولا ومن ظروفه السياسية والاجتماعية الصعبة ، في ظل المحتل حيث السجن والتعذيب والقهر ثانيا ، مما أغنى تجربته الشعرية ، من خلال " ادخال ابداعات فنية عليها في الشكل والمضمون ، فأخذت لغة الحب والغزل المباشر تختفي من أشعاره وتظهر بدلا منها لغة حب الوطن والأرض والتحدي ، ومواجهة الاحتلال التي استلزمت لغة شعرية جديدة

(١) الغربة في شعر درويش :١٩٥ .

(٢) الغربة في شعر درويش :٢٢٦ .

استخدمها درويش في قصائده " [١] ، ولاسيما القصائد التي انتشرت على ساحة الوطن العربي بسرعة فائقة وأخذ صداها يتردد في كل مكان .

ويؤكد درويش تشبثه بالأرض ، ورفضه الرحيل عن الوطن فرارا من الغربة داخله ، وقهر الاحتلال بتمسكه بوصية والده التي تطالبه بالبقاء ، وعدم الرحيل فيقول :

غض طرفا من القمر ..وانحنى يحضن التراب ..وصلى لسماء بلا مطر
ونهاني عن السفر ..حتى صلى على حجر ..غض طرفا عن القمر
وأحذر البحر والسفر ...
وأبي قال مرة : الذي ماله وطن ..ماله في الثرى ضريح
ونهاني عن السفر [٢]

ان من أهم الخصائص الفنية التي سيطرت على عطاء درويش في المرحلة الأولى تلك الصبغة الغنائية التي تميزت بها أشعاره سواء في لغة القصيدة ألفاظا متناسقة وروحا حماسية متمردة ، تغلفها عاطفة وطنية جياشة ، أو في موسيقى خارجية ملموسة وأحيانا داخلية مهموسة [٣] ، وما أكثر مثل هذا في دواوينه الأولى ، ولا سيما ديوانه (يوميات جرح فلسطيني) من مثل قوله في أن يبقى الشاعر شعلة المقاومة حية :

انني مندوب جرح لا يساوم
علمتني ضربة الجلاد .. أن أمشي على جرحي
وامشي ثم امشي واقاوم [٤]

ومن الخصائص الفنية أيضا اعتماد الدلالات والمعاني التاريخية لوطنه الصغير ووطنه العربي الكبير ، ووضعها في قوالب شعرية متنوعة الأغراض

(١) المرجع السابق : ٢٢٦ .
(٢) المرجع السابق : ١٥٠ .
(٣) المرجع السابق : ٢٢٦ .
(٤) شعر المقاومة الفلسطينية : ج ٢ ، ص ١١٤ .

كذلك استعماله لغة جديدة لم تستعمل في قاموس شعراء فلسطين ، وهي لغة مستقاة من الشعر العربي القديم ، ومغلفة بتراكيب محلية فلسطينية ، ذات دلالات ومعان عميقة .

ومن ابداعات درويش ، ذلك الاسلوب الملحمي والقصصي المستند الى الحوار على الرغم من افتقار الشعر العربي في فلسطين للرواية والمسرحية لانها ألوان تحتاج إلى الاستقرار الذي يفتقر له الانسان العربي الفلسطيني .

ومن الخصائص التي تلمس في المرحلة الثانية من شعر درويش ، تحويله مسار الشعر العربي الفلسطيني نحو الواقعية والرمزية لتصبح مدرسة واضحة المعالم ، ولا سيما بعد هزيمة حزيران عام ١٩٦٧ م .

فعشية حرب حزيران كان الشعر العربي بما فيه الفلسطيني يعيش أجواء الصراعات الشكلية (كجماعة شعر) والمحدثين في مصر ، وورثة السياب في العراق ، ونزار واودنيس في بيروت يخوض كل منهما حداثته على طريقته الخاصة ، الأول يمعن عن تضاريس الجسد الانثوي ، والثاني البطل الأنا الضائع [١] . وبدأ الشعر العربي في فلسطين ينبعث عبر درويش والقاسم وزياد وراشد حسين وحنا أبو حنا .

لقد تطلع درويش إلى كل ما هو جديد في الشكل والمضمون واللغة والأسلوب " كما كانت بيروت وما بعدها ، تعد الولادة الثانية لدرويش ، العاشق لكل ما هو جديد فحصار بيروت عمده بالنار وأجبره الخروج من بيروت على الاختلاء بالنفس مدة طويلة في ظروف قاسية " [٢] بحيث بات اكثر توحدا وتعمقا مع ذاته وهنا تظهر الخاصية الفنية الجديدة المتطورة في شعر درويش ، وهي تجسيد المدن كأشخاص اعتبارية ذات قيمة دلالية عميقة المعنى في الغرض العري

---

(١) من مقال في الصفحة الثانية – مجلة اليوم السابع – باريس ، فبراير ١٩٨٧ : ٥٨ .

(٢) الغربة في شعر درويش :٢٣٣ . ثم انظر مقابلة درويش مع مجلة المصور المصرية – القاهرة ، نوفمبر ١٩٨٦ : ٥٦ – ٥٧ .

الثوري الذي يعني الصمود والتحدي والمقاومة [١] ولا أدل على ذلك من قصيدته المعروفة (بيروت) مناسبة صمودها في الحصار .

إن ظاهرة الاغتراب في شعر درويش قد نمت عنده خصائص فنية جديدة وذلك عندما جسد الاغتراب في شكل تراجيدي ، يصور فيه قصة الخروج من بيروت مستلهما التراجيديات المأساوية في التاريخ لمآسي الرحيل بسبب الاضطهاد الذي عانت منه الشعوب [٢] ، ولا سيما الشعب العربي الفلسطيني ، الذي دأب شاعرنا على تجسيده والتفنن في رسم صوره البيانية الناطقة .

وتأتي مرحلة الخروج من بيروت والتنقل في منافي الغربة الجديدة عند درويش لتصقل تجربته الشعرية صقلا فنيا ظاهرا ، تمثل في بروز خاصيتين فنيتين جديدة هما :

(١) القصيدة ذات النفس الطويل التي لم تكن معهودة من قبل في شعره .

(٢) الأسلوب الدرامي في النظم الشعري على رواية المأساة ، والتنقل في أحداثها في الأمكنة والأزمنة وصبغها بالدلالات المعنوية العميقة للنفسية الفلسطينية الجديدة [٣] .

وقبل الانتهاء من الحديث في فنيات شعر درويش ، يجدر التوقف عند نقاط مضيئة منها ، جماهيرية الشاعر على طول الساحة الثقافية العربية، وإبداعه في كتابة النثر كإبداعه في كتابة الشعر . فدرويش يفضل كتابة النثري (يوميات الحزن العاري) على كل أعماله الشعرية كما يقول : " وقد يكون من المدهش أن اعترف بأنني شخصيا أفضل كتابي النثري على أعمالي الشعرية . فأنا لا أقرا الشعر بالشهية ذاتها التي أقرأ بها النثر ، وخاصة المذكرات والروايات " [٤] .

---

(١) من مقابلة مع الشاعر محمود درويش ، مجلة كل العرب ، باريس ، اكتوبر ١٩٨٢ :٤٨ .

(٢) المرجع السابق : ٤٨ .

(٣) الاغتراب في شعر درويش : ٢٣٨ .

(٤) مقابلة مع مجلة كل العرب –باريس ،اكتوبر ١٩٨٢ : ٤٨ .

إن التطور الإبداعي الذي وصل اليه الشاعر محمود درويش جـــرى فـــي ظروف قاسية لإنسان وقع ضحية هو وشعبه ن لاضطهاد عنصري لم يسبق لـــه مثيل ، الأمر الذي أعطاه استحقاقا ليكون شاعرا متمـــيزا علـــى ســـاحة الشـــعر العربي ، فكان أحد ألمع ناشري الثقافة الأدبية على الأرض الفلسطينية وخارجـها كشاعر فيلسوف مبدع .

مراجع البحث :

- بسيسو ، معين : ديوان المعركة ، القاهرة ، دار الفن الحديث ، ١٩٥٢ .
- الجابري ،علي : الغربة في شعر درويش ، مخطوطة مقدمة لجامعة البنجاب لنيـــل درجة الماجستير – لاهور ، باكستان ، ١٩٨٨ باشراف الدكتور أحمد ظهور .
- جرار ، وليد ، شاعران من جبل النار ، بيروت ، مطبعة الشرق الأوسط ، ١٩٨٥.
- حسني ، محمود ، شعر المقاومة الفلســطينة ، ج٢ ، الوكالـــة العربيـــة للتوزيـــع والنشر – الزرقاء – عمان ، ١٩٨٤ .
- الخطيب يوسف ، ديوان الوطن المحتل – دمشق ، دار فلسطين للتأليف والترجمـــة والنشر ، ١٩٨٦ .
- درويش ، محمود ، ديوان آخر الليل ، بيروت ، دار العودة ، ١٩٦٧ .
- درويش ، محمود ، ديوان أوراق الزيتون ، بيروت ، دار العودة ، ١٩٦٤ .
- درويش ، محمود ، عاشق من فلسطين . الناصرة ، مطبعـــة وأوفيســـت الحكيـــم ، ١٩٦٦ .
- درويش ، محمود ، ديوان محمود درويش ، بيروت ، دار العودة ، ١٩٨٣ .
- درويش ، محمود ، يوميات جرح فلسطيني ، عكا : دار الأسوار ، د. ت .
- رشيد ، هارون هاشم ، ديوان الغرباء ، ط ١ القاهرة ، مطعبة السعادة ، ١٩٥٤ .
- رشيد ، هارون هاشم ، ديـــوان مـــع الغربـــاء ، القـــاهرة ، مطبعـــة الســـعادة ، ١٩٥٦ .
- زقطان ، خليل ، ديوان صوت الجياع ، القدس ، مطبعة دار الأيتـــام الاســـلامية، ١٩٥٣ .
- زياد ، توفيق ، ديوان توفيق زياد ، بيروت ، دار العودة ، ١٩٧٠ .

- السوافيري ، كامل ، الشعر العربي الحديث في مأساة فلسطين . القاهرة ، مطبعة النهضة ، د. ت .
- شاخت ، ريتشارد ، ترجمة كامل يوسف حسين ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٨٠ .
- شتا ، السيد علي ، نظرية الاغتراب من منظور علم الاجتماع ، الرياض ، دار الكتب ، ١٩٨٤ .
- فهمي ، ماهر حسن ، الحنين والغربة في الشعر العربي الحديث ، القاهرة ، دار الفكر ، ١٩٧٠ .
- الكرمي ، عبد الكريم ، ديوان المشرد ، أبو سلمى ، دمشق ، دار الفكر ١٩٦٩ .
- كنفاني ، غسان ، أدب المقاومة الفلسطينية ، بيروت ، دار الآداب ، ١٩٦٦ .
- ناصر ، كمال ، ديوان جراح تغني ، بيروت ، دار الآداب ، ١٩٦٠ .
- النخال ، سلامة ، فلسطين أرض وتاريخ ، عمان ، دار الجليل ، ١٩٨٤ .
- نصرة ، خالد ، أغاني الفجر ، عمان ، ١٩٥٥ .
- النقاش ، رجاء ، محمود درويش شاعر الأرض المحتلة ، القاهرة ، دار الهلال، ١٩٦٩ .
- ياغي ، عبد الرحمن ، حياة الأدب الفلسطيني ، بيروت ، المكتب التجاري ، ١٩٦٨.

الدوريات :

الصحف :

١- صحيفة الراية ، الدوحة قطر .
٢- صحيفة الشرق الأوسط ، جدة - المملكة العربية السعودية .

المجلات :

٣- مجلة الكرمل ، عدد ٥ ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٢ .
٤- مجلة كل العرب ، باريس ، فرنسا ، اكتوبر ١٩٨٢ .
٥- مجلة المصور ، القاهرة ، مصر ، ١٩٨٦ .
٦- مجلة اليوم السابع ، باريس ، فبراير ١٩٨٧ .